سورة المنافقين

هى مدنية وآياتها إحدى عشرة نزلت بعد الحج .

ووجه اتصالها بما قبلها ـ أنه ذكر فى الأولى حال المؤمنين الذين بعث إليهم النبي الأمىّ يتلو عليهم كتابه ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة ، وأمرهم بالصلاة وترك البيع حين أدائها ، وفى هذه ذكر أضدادهم وهم المنافقون الذين يشهدون كذبا بأن محمدا رسول الله ويحلفون الأيمان الحرجة على ذلك ، ومن ثم كان النبي يقرأ فى صلاة الجمعة فى الركعة الأولى بسورة الجمعة ، فيحرض بها المؤمنين على العبادة ، وفى الركعة الثانية بسورة المنافقين فيقرّع بها المنافقين .

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللهِ وَاللهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ ، وَاللهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ (١) اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللهِ ، إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ (٣) وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ ، وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُسَنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ ، قَاتَلَهُمُ اللهُ ، أَنَّى يُؤْفَكُونَ (٤) .

شرح المفردات

المنافق : من يظهر الإيمان ويبطن الكفر ، جُنَّةً : أى وقاية وسترا لدمائهم وأموالهم ، آمنو : أى بألسنتهم ، كفروا : أى بقلوبهم ، طبع : أى ختم عليها كما يختم

بالطابع على ما يراد حفظه حتى لا يؤخذ منه شئ ، لا يفقهون : أى لا يعلمون ، تعجبك أجسامهم : أى لصباحتها وتناسب أعضائها ، تسمع لقولهم : أى لفصاحتهم وحسن حديثهم ، خشب : واحدها خشباء؛ وهى الخشبة التى نخر جوفها ، والصيحة : الصوت، قاتلهم الله : أى لعنهم وطردهم من رحمته ، يؤفكون : أى يصرفون عما هم عليه .

المعنى الجملى

وصف الله تعالى المنافقين بأوصاف هى منتهى الشناعة والقبح :

(١) أنهم كذابون يقولون غير ما يعتقدون .

(٢) أنهم لا يبالون بالحلف بالله كذبا ، سترا لنفاقهم ، وحقنا لدمائهم .

(٣) أنهم جبناء ، فهم على ضخامة أجسامهم ، وفصاحة ألسنتهم ، يظنون أن كل مناد ينادى إنما يقصدهم للإيقاع بهم .

الإيضاح

(إذا جاءك المنافقون قالوا نشهد إنك لرسول الله) أى إذا حضر مجلسك المنافقون كعبد الله بن أبىّ وصحبه قالوا نشهد شهادة لا نشك فى صدقها، إنك رسول من عند الله حقا ، أوحى إليك وحيه ، وأنزل عليك كتابه ، رحمة منه بعباده .

ثم أتى بجملة معترضة بين ما قبلها وما بعدها ، تحقيقا لرسالته فقال :

(والله يعلم إنك لرسوله) أى والله يعلم إنك لرسوله إلى الناس كافة بشيرا ونذيرا ، لتنقذهم من الضلال إلى الهدى .

ثم بيّن كذبهم فى مقالهم الذى حدّثوا به فقال :

(والله يشهد إنّ المنافقين لكاذبون) فيما أخبروا به ، لأنهم لا يعتقدون صدق ما يقولون ولا تواطئ قلوبهم ألسنتهم فى هذه الشهادة .

ثم ذكر أنهم يحتالون على تصديق الناس لهم بكل يمين مُخْرِجة فقال :

(اتخذوا أيمانهم جنة) أى جعلوا أيمانهم الكاذبة وقاية وسترا لحقن دمائهم وحفظ أموالهم ، فيحلفون بالله إنهم لمنكم ، ويقولون : نشهد إنك لرسول الله ، حتى لاتجرى عليهم أحكام الكفار من القتل والأسر وأخذ الأموال غنيمة .

قال قتادة : كلما ظهر عليهم ما يوجب مؤاخذتهم حلفوا كاذبين ، عصمة لدمائهم وأموالهم .

وفى هذا تعداد لقبائح أفعالهم ، وأن من عادتهم أن يَسْتجنُّوا بالإيمان الكاذبة ، كما استجنوا بالشهادة الكاذبة .

ثم حكى عنهم جريمة أخرى وهى إضلال الناس وصدهم عن الإسلام فقال :

(فصدوا عن سبيل الله) أى فمنعوا الناس عن الدخول فى الإسلام ، وعن الإنفاق كما حكى عنهم سبحانه بعدُ .

وقصارى ذلك — أنهم أجرموا جُرْمين :

(١) أعدوا الأيمان الكاذبة وهيئوها لوقت الحاجة ، ليحلفوا بها ويتخلصوا من المؤاخذة .

(٢) أنهم يمنعون الناس عن الدخول فى الإسلام وينفّرونهم منه متى استطاعوا إلى ذلك سبيلا .

ثم بين قبح مغبّة ما يعملون ، ووبال ما يصنعون فقال :

(إنهم ساء ما كانوا يعملون) أى قبح فعلهم إذ آثروا الكفر على الإيمان ، وأظهروا خلاف ما أضمروا ، وسيلقون نكالا ووبالا فى الدنيا والآخرة .

أما فى الدنيا فسيفضحهم الله على رءوس الأشهاد ، ويُظْهِر نفاقهم للمؤمنين بنحو قوله : « وَلاَ تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلاَ تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ ، إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ » .

وأما فى الآخرة فحسبهم جهنم وبئس المهاد .

ثم ذكر ما جرأهم على الكذب والاستخفاف بالإيمان المحرجة فقال :

(ذلك بأنهم آمنوا ثم كفروا فطبع على قلوبهم فهم لا يفقهون) أى ذلك الذى فعلوه لسوء سريرتهم ، وقبح طويتهم ، فاستهانوا بما يأتون وما يذرون ، ولم يكن همهم إلا المحافظة على دمائهم وأموالهم ، ومن ثم أظهروا للناس إيمانا وأبطنوا كفرا ، وقد خُتم على قلوبهم فلا تهتدى إلى حق ، ولا يصل إليها خير ، ومن جرّاء ذلك عَمُوا عما نصب من الأدلة على صدق الرسول ، وصمت الآذان عن سماع ما يوجب الإيمان ، فهم صم بكم عمى فهم لا يعقلون .

ثم ذكر مالهم من جمال فى الصورة واعتدال فى القوام فقال :

(وإذا رأيتهم تعجبك أجسامهم) أى لاستواء خَلْقهم ، وجمال صورهم .

كما وصفهم بالفصاحة وذرابة اللسان فقال :

(وإن يقولوا تسمع لقولهم) لحلاوة منطقهم وحسن توقيع حديثهم فإذا سمعهم سامع أحب أن يُصْغِىَ إليهم ، وأن يطول حديثهم جَهْدَ الاستطاعة .

ثم وصفهم بأن أفئدتهم هواء لاعقول لهم ولا أحلام فقال :

(كأنهم خشب مسندة) أى هم أشباح بلا أرواح ، لهم جمال فى المنظر ، وقبح فى المَخْبَر ، فسدت بواطنهم ، وحسنت ظواهرهم ، فكانت كالخشب الجوفاء التى نخرها السوس ، فهى مع حسنها لا ينتفع فيها بعمل ، ولا يستفاد منها خير ، ولله در أبى نواس :

لاتخدعَنْك اللحى ولا الصُّور   تسعةُ أعشارِ من ترى بقر
تراهمُ كالسراب منتشرا   وليس فيه لطالب مَطر
فى شجر السَّرْوِ منهمُ مَثَلٌ   له رُوَاءٌ وما له ثمر

ثم وصفهم بالجبن والذلة فقال :

(يحسبون كل صيحة عليهم) أى كلما نادى مناد فى العسكر ، أو انفلتت دابة أو نُشِدَت ضالة ـ ظنوا أن العدو قد فجأهم ، وأن أمرهم قد افتضح ، وأنهم هالكون لامحالة ، ولقد قالوا : يكاد المريب يقول خذونى ، ويكاد السارق يقول إذا رأى القيد : ضعوه فى يدى ، لما ألقى من الرعب فى قلوبهم ، فهم يخافون أن تهتك أستارهم ، وتكشف أسرارهم ، ويتوقعون الإيقاع بهم ساعة فساعة .

ونحو الآية قوله تعالى : « أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ ، فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ ، تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ ، فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُمْ بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ » وقد نظر المتنبى إلى الآية فى قوله :

وضاقت الأرض حتى ظن هاربهم إذا رأى غيرَ شىء ظنــــه رجلا

(هم العدوّ) الذى بلغ الغاية فى العداوة .

(فاحذرهم) ولا تأمنهم على سر ، ولا تلتفت إلى ظاهرهم ، فقلوبهم متحرقة حسدا و بغضا ، وأعدى الأعداء العدو المداجى الذى يكاشرك (يبتسم لك) وتحت ضلوعه الداء الدوىّ ، والشر المستطير .

ثم زاد سبحانه فى ذمهم وتوبيخهم ، وعجّب من حالهم فقال :

(قاتلهم الله) أى لعنهم الله وطردهم من رحمته ، فما أفظع حالهم ، وما أشدهم غفلة عن مآلهم .

وهذا تعليم منه لعباده المؤمنين أن يلعنوهم ، فكأنه قال : قولوا قاتلهم الله .

(أنّى يؤفكون) أى كيف يصرفون عن الحق إلى الباطل ، وقد كان لهم مدّكر فيما حولهم ، وفيما أمامهم من صدق الداعى بما أتى به من البينات الدالة على أنه مرسل من ربه .

وإن تعجب من شىء فاعجب من جهالتهم وظنهم الفاسد أنهم على الحق ، فما أعظمها محنة ، وأعجب بها نقمة ، جازاهم الله بها على سوء أعمالهم ، وقبيح فعالهم .

وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ (٥) سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ ، لَنْ يَغْفِرَ اللهُ لَهُمْ ، إِنَّ اللهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (٦) هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ حَتَّى يَنْفَضُّوا، وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ (٧) يَقُولُونَ لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ ، وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ (٨) .

شرح المفردات

لوّوا رءوسهم : أى حوّلوها استهزاء ، يصدون : أى يعرضون عن القائل ، الفاسقين : أى الخارجين من طاعة الله وطاعة الرسول ، المنهمكين فى أنواع الشرور والآثام ، حتى ينفضّوا : أى حتى يتفرقوا ، خزائن السموات والأرض : أى خزائن الأرزاق فيهما ، لايفقهون : أى لايعلمون علماً صادراً عن إدراك لجلال الله وقدرته ، والأعزّ : أى المنافقون ، والأذل فى زعمهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وصحبه ، والعزة : الغلبة والنصر .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر كذب المنافقين فى قولهم للرسول صلى الله وعليه سلم : نشهدإنك لرسول الله ، وبيّن شنيع أفعالهم ، بترويجها بالأيمان الفاجرة ، ثم أعقبه بذكر جبنهم وصلفهم ، وأنهم أجسام البغال ، وأحلام العصافير ، ثم أردفه ببيان أنهم أعداء الله حقا ؛ أعقب هذا بذكر ماصدر منهم مما يثبت كذبهم ونفاقهم ، بما لا يدع شبهة لمن يلتمس لهم المعاذير ، ويبرئهم من النفاق ؛ فمن ذلك :

(١) أنهم إذا طلب منهم أن يتقدموا إلى الرسول ليستغفر لهم على ما فرط منهم من الذنوب، أما لوا رءوسهم وأعرضوا استكباراً وأنفة أن يفعلوا.

(٢) أنهم قالوا: لئن رجعنا من وقعة بنى المُصْطَلِق (قبيلة من اليهود) إلى المدينة لنخرجن الأذلاء محمداً وصحبه منها.

ثم نعى عليهم ما قالوا بأنهم قوم لاحلوم لهم، ولاهم يفقهون جليل قدرة الله وبديع صنعه.

روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم حين غزا بنى المصطلق علا المُرَيْسِيع (ماء لهم) وهزمهم وقتل وأسر — ازدحم على الماء جَهْجَاه بن سعيد الغِفارى، وكان أجيراً لعمر بن الخطاب، وسنان الجُهنى، وكان حليف عبد الله بن أُبَىّ، واقتتلا فصرخ جهجاه وقال: يالَلمهاجرين، وصرخ سنان وقال: يالَلأنصار، فأعان جهجاها رجل من المهاجرين ولطم سنانا؛ فقال عبد الله بن أبىّ للمهاجرين: ماصحبْنا محمداً إلا لنُلْطَم، والله مامثلنا ومثلهم إلا كما قال القائل: سمِّن كلبك يأكلك، أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعزّ منها الأذل، ثم قال لقومه: لو أمسكتم عن هذا وذويه فضل الطعام لم يركبوا رقابكم، فلا تنفقوا عليهم حتى ينفضوا من حول محمد، فبلغ ذلك رسولَ الله صلى الله عليه وسلم، فقال عمر: دعنى يارسول الله أضرب عنق هذا المنافق قال: إذاً تَرْعُد أُنف كثيرة بيثرب (يريد صلى الله عليه وسلم أنه يهيج الشر) قال: فإن كرهت أن يقتله مهاجر فأمر به أنصاريا، قال: فكيف إذا تحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه؟. ثم قال لعبد الله: أنت صاحب هذا الكلام الذى بلغنى، قال: والله الذى أنزل عليك الكتاب ماقلت شيئاً من ذلك، وإن زيدا (يريد زيد بن أرقم الذى بلغ الرسول صلى الله عليه وسلم) لكاذب، فنزلت هذه الآيات، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لزيد: ياغلام إن الله صدّقك وكذب المنافقين، فلما بان كذب عبدالله قيل له: قد نزلت فيك آى شداد، فاذهب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يستغفر

لك ، فلوّى رأسه وقال : أمرتمونى أن أومن فآمنت ، وأمرتمونى أن أزكّى فزكيت وما بقى إلا أن أسجد لمحمد ، ولم يلبث إلا أياما حتى اشتكى ومات .

الإيضاح

(وإذا قيل لهم تعالوا يستغفر لكم رسول الله لوّوا رءوسهم ورأيتهم يصدّون وهم مستكبرون) أى وإذا قيل لجماعة المنافقين كعبد الله بن أبىّ : هلموا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يطلب لكم من ربكم غفران ذنوبكم ، صدوا وأعرضوا ، استكباراً وعتوًّا .

قال الكلبى : لما نزل القرآن بصفة المنافقين مشى إليهم عشائرهم من المؤمنين وقالوا لهم : ويلكم افتضحتم بالنفاق ، وأهلكتم أنفسكم فأتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وتوبوا إليه من النفاق ، واسألوه أن يغفر لكم ، فأبوا ذلك وزهدوا فى الاستغفار فنزلت الآية :

وقال ابن عباس : لما رجع عبد الله بن أُبىّ من أُحُد بكثير من الناس مقته المسلمون وعنّفوه وأسمعوه ما يكره ؛ فقال له بنو أبيه : لو أتيتَ رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى يستغفر لك ويرضى عنك، قال: لا أذهب إليه ولا أريد أن يستغفر لى ، وجعل يلوّى رأسه فنزلت :

ثم أيأسهم من جدوى الاستغفار لهم فقال :

(سواء عليهم أستغفرت لهم أم لم تستغفر لهم ، لن يغفر الله لهم) أى الاستغفار لهم وعدمه سيان لا يجديانهم نفعاً ، لأن الله قد كتب عليهم الشقاء بما كسبت أيديهم ، وبما اجترحت من الفسوق والآثام ، وبما ران على قلوبهم من الجحود والطغيان ؛ ثم علل ذلك بقوله :

(إن الله لا يهدى القوم الفاسقين) أى إن الله لا يهدى من أحاطت به خطيئته فلم تجد الهداية إلى قلبه سبيلا تسلكه ، ولا المواعظ والنصائح متسعاً فى فؤاده ،

فأنى للقلب أن يهتدى ، وللعقل أن يرعوى، وماذا تفيد الآيات والنذر عن قوم لا يعقلون ؟

ثم ذكر هَنَة أخرى لهم فقال :

(هم الذين يقولون لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا) أى هم الذين يقولون للأنصار : لا تطعموا محمداً وأصحابه حتى تصيبهم مجاعة ، فيتركوا نبيهم حين يعضّهم الجوع بنابه .

ثم رد عليهم وخطّأهم فيما يقولون فقال :

(ولله خزائن السموات والأرض) أى ولله جميع ما فى السموات والأرض من شىء ، و بيده مفاتيح أرزاق العباد ، لا يقدر أحد أن يعطى أحدا شيئاً إلا بمشيئته .

(ولكن المنافقين لا يفقهون) ذلك ، لجهلهم بسنن الله فى خلقه ، وأن الله قد كفل الأرزاق لعباده فى أى مكان كانوا متى عملوا وجدوا فى الحصول عليها .

ثم ذكر هَنَة ثالثة لهم وهى أعظمها فقال :

(يقولون لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجنّ الأعز منها الأذل) أى يقول عبد الله ابن أبىّ ومن يلوذ به من صحبه : لئن عدنا إلى المدينة لنخرجنكم منها أيها المؤمنون فإننا الأقوياء الأشداء الأعزاء ، وأنتم الضعفاء الأذلاء .

ثم رد عليهم مقالهم فقال :

(ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين) أى ولله الغلبة والقوّة ، ولمن أعزه الله من الرسول والمؤمنين .

روى « أن عبد الله بن عبد الله بن أبىّ ، وكان مؤمناً مخلصا ، سلّ سيفه على أبيه عند ما أشرفوا على المدينة وقال : لله علىّ ألا أغمده حتى تقول : محمد الأعز وأنا الأذل ، فلم يبرح حتى قال ذلك » .

وروى « أنه وقف واستل سيفه وجعل الناس يمرون عليه حتى جاء أبوه فقال : وراءك ، قال مالك و يلك ؟ قال والله : لا تجوز من هنا حتى يأذن لك رسول الله

صلى الله عليه وسلم فإنه العزيز وأنت الذليل ، فرجع حتى لقى رسول الله ، وكان إنما يسير ساقة (فى آخر الجيش) ، فشكا إليه ماصنع ابنه ، فأرسل إليه النبي صلى الله عليه وسلم أن خلِّ عنه يدخل ففعل » .

(ولكن المنافقين لايعلمون) أن العزة لله ولرسوله وللمؤمنين ، وأن العاقبة للمتقين ، وأن الله ينصر من ينصره كما قال « كَتَبَ اللهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِى » وسننه تعالى لاتبديل فيها ولاتغيير ، وهو لابد جاعل عباده المؤمنين هم الأعزاء كما وعد ، وجاعل مخالفيه هم الأذلاء .

ولادخل للمال والنشب ، ولا للحسب والنسب ، فى تلك القوة التى يُمد بها من يشاء ، والنصرة التى يمنحها عباده المخلصين ، وإن الله منجز وعده لنبيه ، كما أنجزه لمن قبله من رسله ، وقد تم لهم الظفر على أعدائهم الضالين .

يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَاتُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللهِ ، وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (٩) وَأَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِىَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ ، فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِى إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ (١٠) وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا وَاللهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (١١) .

شرح المفردات

لاتلهكم : أى لاتشغلكم ، وذكر الله : العبادات المذكرة به ، والمال والأولاد يراد بها زخرف الدنيا ، الخاسرون فى تجارتهم : إذ باعوا العظيم بالحقير ، لولا : كلمة تفيد تمنى حصول مابعدها .

المعنى الجملى

بعد أن حكى مقال المنافقين من أنهم الأعزاء ، وأن المؤمنين هم الأذلاء ، اغترارا بما لهم من مال ونشب ، وأن ذلك هو الذى صدهم عن طاعة الله ، وجعلهم يعرضون عن الإيمان بالله إيمانا حقا ، ويؤدون فرائضه ، ويقومون بما يقربهم من رضوانه ؛ أردف ذلك بنهى المؤمنين أن يكونوا مثلهم فى ذلك ، بل عليهم أن يلهجوا بذكر الله آناء الليل وأطراف النهار ، ويؤدوا ما فرض عليهم من العبادات ، ولا يشغلهم عن ذلك زخرف هذه الحياة من مال ونشب وأولاد وجاه ، فما متاع الحياة الدنيا فى الآخرة إلا قليل ؛ ثم أمرهم أن ينفقوا أموالهم فى أعمال البر والخير ولا يؤخروا ذلك حتى يحل الموت فيندموا حيث لا ينفع الندم ، ويتمنوا أن يطيل الله أعمارهم ليعوضوا بعض ما فاتهم ، ولكن أنى لهم ذلك ؛ ولكل نفس أجل محدود لاتعدوه ، والله خبير بما يعملون ، وهو مجازيهم على أعمالهم ، إن خيرا وإن شرا .

الإيضاح

(يأيها الذين آمنوا لاتلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله) أى لا يشغلكم تدبير أموالكم ، والعناية بشؤون أولادكم ، عن القيام بحقوق ربكم ، وأداء فرائضه التى طلبها منكم ، واجعلوا للدنيا حظا من اهتمامكم ، وللآخرة مثله ، وهذا ماعناه الحديث : « اعمل لدنياك كأنك تعيش أبدا ، واعمل لآخرتك كأنك تموت غدا » .

وبهذا امتازت الملة الحنيفية السمحة ، فما طلب من المؤمنين أن يكونوا ماديين يتكالبون على جمع حطام الدنيا كما يفعل اليهود ، ولا أن يكونوا روحانيين يجردون أنفسهم من لذات هذه الحياة ، ويتبتلون إلى ربهم كما يفعل المسيحيون ، كما يرشد إلى هذا قوله تعالى : « قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ

الرِّزْقِ » وقوله : « يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا » .

ثم توعد من يفعل ذلك فقال :

(ومن يفعل ذلك فأولئك هم الخاسرون) أى ومن تلهّ بالدنيا وشغلته عن حقوق الله فقد باء بغضب من ربه ، وخسرت تجارته ، إذ باع خالدا باقياً ، واشترى فانياً زائلا ؛ وكيف يرضى عاقل بمثل هذه التجارة الخاسرة ؟

ومن أهم مايقرب العبد من ربه ، ويجعله يفوز برضوانه — رحمة البائسين من عباده ، وبذل المال فى الوجوه التى فيها سعادة الأمة ، وإعلاء شأن الملة ، وانتشار الدعوة ، ومن ثم قال :

(وأنفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتى أحدكم الموت فيقول رب لولا أخرتنى إلى أجل قريب فأصدّق وأكن من الصالحين) أى وأنفقوا بعض ما أعطيناكم من فضلنا من الأموال ، شكرا على النعمة ، ورحمة بالفقراء من عباده ، وادخروا ذلك ليوم العرض والحساب ، فتجنوا ثمار ماعملتم ، ولا تدخروه فى صناديقكم ، وتدعوه لوارثكم ، فربما أضاعه فيما لا يكسبكم حمدا ولا مدحا ، بل يكسبكم ذما وقدحا .

وقد جاء فى الخبر : « أطعموا الطعام ، وصِلوا الأرحام ، وصَلُّوا بالليل والناس نيام ، تدخلوا الجنة بسلام » وجاء أيضا : « يابن آدم ليس لك من مالك إلا ما لبست فأبليت ، أو أكلت فأفنيت ، أوتصدّقت فأبقيت » .

ولا تنتظروا حتى يحين وقت الاحتضار ، وتروا الموت رأى العين ، ثم تتمنون أن لو مدّ الله فى الأجل ، وأطال العمر ، لتتداركوا مافات ، وتحسنوا العمل ، وتساعدوا البائسين وذوى الحاجة ، فهيهات هيهات ، فليس ذا وقت الندم .

ندم البغاة ولات ساعة مندم والبغى مرتع مبتغيه وخيم

فأنّى للعمر أن يطول ، وللحياة أن تزيد ؟ ولكل نفس أجل لا تعدوه ، وعمر

لا يزيد ولا ينقص ؛ فماذا يفيد التمنى ، وماذا ينفع الندم والحسرة ؟ وذلك ما عناه سبحانه بقوله :

(ولن يؤخر الله نفساً إذا جاء أجلها) فعليكم أن تستعدوا قبل حلول الأجل ، وتهيئوا الزاد ليوم المعاد « فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ . وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ . وَمَا أَدْرَاكَ مَاهِيَهْ . نَارٌ حَامِيَةٌ » .

وفى هذا عبرة لمن اعتبر ، ولم يفرّط فى أداء الحقوق والواجبات .

ثم حذرهم وأنذرهم بأنه رقيب عليهم فى كل ما يأتون وما يذرون فقال :

(والله خبير بما تعملون) فمجازيكم على الإحسان إحساناً ، وعلى الإساءة إعراضا عنه وسخطا ، و بعدا عن رضوانه : إنك لاتجنى من الشوك العنب .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله .

تضمنت هذه السورة شيئين

(١) وصف المنافقين و بيان سيء خصالهم من الكذب والأيمان الفاجرة والجبن .

(٢) حث المؤمنين على الطاعة و إنفاق المال قبل انقضاء الأجل .